

حتمية سقوط النظام الملكي في ظل تنامي الوعي السياسي لعامة الشعب

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أظن أن الوضع في إيران يشبه الوضع في أي بلد آخر. لا من جهة موقف الشعب، ولا من جهة موقف الملك وحكومته.

فالنهضة التي يقوم بها شعبنا، وهذا المستوى الذي بلغته الثورة، لا نجد لها نظيراً في تاريخنا. بل لا نجد مدى سنين طويلة من التاريخ أن شعبنا قد تحرك بنفسه بهذه الصورة.

في السابق لم يكن ممكناً للكسبة إغلاق السوق في إحدى المدن، حتى لو أرادوا هم ذلك! فمثلاً في مدينة قم، وسوقها جيد (من الناحية الدينية)، كان علماء قم يترددون في دعوة الناس إلى إغلاق السوق إذ كان محتملاً أن لا يستجيب الناس لدعوتهم. ثم شيئاً فشيئاً تحول الوضع بحيث أصبح الناس يستجيبون إلى دعوات إغلاق السوق، إذا وقعت حادثة ما وُجّهت إهانة للعلماء، وإن كان في ظل حالة من القلق وعدم الارتياح. حتى بلغ الحال بالأهالي أن يبادروا هم إلى إغلاق الأسواق لأي أمر مهما كان بسيطاً. وهذه الظاهرة لا تنحصر بمدينة قم بل تشمل جميع المدن في كافة أرجاء إيران، وأصبح سوق طهران "البازار" سوقاً سياسياً، كما يصفونه، وهو حالياً في حالة تعطيل تام أو شبه تام.

هكذا أصبح الوضع في إيران، وخاصة أسواقها. ونفس هؤلاء الأهالي الذين كان يصعب عليهم إيقاف كسبهم ليوم واحد، أصبحوا اليوم على العكس، حيث تصعب عليهم الاستجابة إذا قيل لهم افتحوا محالكم ليوم واحد. وهم اليوم يشكون أحياناً من أن السيد الفلاني أوصى بإيقاف الإضراب عن الكسب في حين إذا وصلت وصية بالإضراب وهم يفتحون محالهم بادروا فوراً إلى الاستجابة. فقد أصبح تحرك الأهالي تحركاً طوعياً ذاتياً. إذ غير تفجر النهضة روح الأهالي، وجعلها نشطة وقوية ومتحركة، بحيث يتأذون وينفعلون إذا قيل لهم اذهبوا إلى كسبكم وأعمالكم!! هذا من جهة الكسب. ومن جهة أخرى، كان الوضع سابقاً بحيث يعتبر نزع أحدهم مصيبة، ناهيك عن وقوع قتيل. فهذه مصيبة كبرى. أما الآن فقد تغير الوضع. فقد وصلتني الليلة الماضية ورقة من أم كتبت فيها تقول: لقد قتل خمسة أو أربعة من أولادي.. وهي تفتخر بذلك وتقول: لا زلت أنا وعائلي مستعدين للتضحية.. لقد أصبحت مسألة عادية بالنسبة للأهالي تقديم أعداد من القتلى في كل مدينة. لقد ظهر فيهم مثل هذا التحرك. وتحولت النشاطات الجهادية إلى قضية عامة وحالة عادية في عموم أرجاء إيران وليس

في مدينة واحدة أو اثنين.. ولعل هذه الصحف لا تنقل كافة الوقائع كما أن الإذاعة الإيرانية لا تذكر كافة الحوادث بالتأكيد. فلعل ما ينقل منها لا يزيد على نصفها.

وعندما يصل الأمر إلى الإذاعات الأجنبية، تجدون أنكم كلما أدرتم زر المذياع واستمعتم إلى نشرات الأخبار تلاحظون أن أخبارها المنقولة تتحدث عن الإضرابات والعتصامات وأعداد القتلى في هذه المدينة أو في تلك القرية. أجل فقد وصل الأمر إلى القرى، حيث سقط عدد من القتلى في أطراف مدينة همدان على ما يبدو.

وقد أضرب خمسة آلاف شخص، وأمثال هذه النشاطات السياسية التي لم يكن حتى اسمها موجودا في السابق. ولم يكن الأهالي يعرفون معنى الإضراب أصلا. أما الآن فقد أصبح ظاهرة عادية يمارسها الأهالي في مختلف أرجاء إيران. فيضرب عن العمل في إحداها خمسة آلاف شخص. وقد سمعت أن الإضراب شمل كافة المدن وكذلك العاملين في شركة النفط أيدهم الله.

وكنت مرة (في السابق) أفكر في أن تقولوا لهم اقطعوا جريان النفط بأنفسكم ولا تدعوهم ينهبونه. إذا القضية صحيحة، فالإضرابات قائمة الآن في إيران، في المدارس والمعامل وفي مؤسسة النقل الجوي وغيرها. أجل فظاهرة الإضراب شملت كل مكان، في حين كان معنى الإضراب مجهولا في السابق وقد تحول الآن إلى حالة عادية وطوعية ذاتية لدى أبناء الشعب، حتى دون أن يدعواهم إليه أحد.

الحكومة كانت تتوهم أنها تستطيع مواجهة هذه الإضرابات. فهي مثلا تعلن أن هذه الإضرابات من أجل زيادة الرواتب. كما حدث في محافظة خراسان في بداية الأمر حيث بعثوا لي برسالة حول إضراب قامت به إحدى الفئات لا أتذكرها الآن فأعلن أنه إضراب لزيادة الرواتب. وهذا ادعاء كاذب فالإضراب إضراب سياسي، وقد أخذوا الآن يعلنون أن الإضراب الذي تقوم به بهدف إطلاق سراح السجناء السياسيين، وإلغاء حالة الطوارئ، وإخراج هؤلاء الأجانب الذين أوغلوا في نهب ثروات هذا الشعب وإيذائه. وهذا المطلب الثالث مهم ومهم جدا. فلماذا يريد هؤلاء الأجانب الذين يبلغ عددهم ستين ألفا أو خمسة وأربعين أو خمسين ألفا من الأميركيين الذين يتقاضون رواتب ضخمة من هذا الشعب؟؟

إذاً، أصبحت الإضرابات والنشاطات الجهادية التضخمية، وتعطيل الأسواق، والخروج إلى الشوارع، والنظواهرات، وإطلاق شعارات الموت للنظام المتجبر وإعلان البراءة منه، ظاهرة عادية اليوم. في حين لو أن شريطا دخل قبل خمسة أعوام أيا من أسواق إيران وأمر أصحاب المحلات بأن يرفعوا عليها

العلم الفلاني، مثلاً بمناسبة يوم الرابع من آبان (ذكرى ولادة الملك) هذا الشهر المشؤوم (يضحك الحاضرون)، لما تخلف أحد عن هذا الأمر. فما من أحد كان يتصور أن من الممكن مخالفة شرطي (يضحك الحاضرون)، فالجميع كانوا يرهبون الشرطة، الذين كان يدخل أحدهم إلى سوق في طهران أو قم أو شيراز فيأمر برفع الأعلام أو إضاءة المصابيح فيستجيب الجميع لأمره!! أما الآن فإنهم لا يعبأون أصلاً بالحكم العسكري ولا بالحراب ولا بحكومة الملك ولا غيرها.

لقد شاهدنا في السابق حالات إعلان الحكم العسكري، حينها لو قيل أن في المنطقة الفلانية حكم عسكري، لهيمن الرعب على السامع فوراً، ولم يكن أحدهم يتجرأ على مخالفة الحكم العسكري أو مخالفة الشرطي، أما الآن فإنكم تلاحظون أن حالة الحكم العسكري قائمة في عدة مدن إيرانية ولا أحد يعبأ بها، فالأهالي يخرجون إلى الشوارع ويتظاهرون ويرددون الشعارات، في حين أن هؤلاء (العناصر الحكومية العسكرية) أخذوا يتراجعون كثيراً عن اتخاذ مواقف المواجهة للأهالي.

هذا هو حال شعبنا وينبغي مقارنته بما كان عليه قبل هذه النهضة، وقبل ثلاثين سنة مثلاً، ليتضح ما بلغه من النضج السياسي والديني خلال هذه الفترة. ففي السابق كان الشعب لا يقر لنفسه التدخل في أي أمر ويقول: ما شأننا بذلك، فالدولة دولة الملك وهو الذي يدبر شؤونها. هذا هو المنطق الذي كان سائداً، فالشعب له وكل شيء له، يفعل به ما يشاء. هذا المنطق كان حاكماً على عامة أبناء الشعب إلا ما ندر. وهؤلاء هم ثلة قليلة لم يكونوا يستطيعون الإعراب عن رأيهم. أما منطق عامة الشعب فهو أن البلد مملكة الملك والرعية رعيته. ولا بد أنكم جميعاً تتذكرونه وكيف أنه كان المنطق الحاكم قبل عشرين أو ثلاثين عاماً على أفكار شعبنا المستضعف، تأثراً بما كان يفعله هؤلاء المتجبرون والمستبدون الذين ضربوا رؤوس أبناء الشعب واستضعفهم حتى اعتادوا على ذلك.

لو بقي شعب فترة، طوال ألفين وخمسمائة عام، تحت تسلط الجبابة وقمعهم، وفي ظل راية الإمبراطورية الخبيثة، وهي أخبت الأنظمة الدنيوية، وأصحابها أخبت الناس، فإنه سيعتاد على الخضوع لهم ليفعلوا ما يشاؤون دون أن تنطلق منه أدنى صرخة توجع، فهو كان يقر ذلك كحق للملك لأن البلد بلده والرعية رعيته. هذا هو المنطق السائد آنذاك. ولم يكن يخطر في ذهن محمد رضا أن يقول له أحدهم يوماً لماذا؟ ولماذا فعلت هذا الأمر؟ فما معنى كلمة "لماذا" في مقابل "الرجل الأول" في إيران؟ فهذا ما لا يتجرأ عليه أحد حتى لو كان رئيس الوزراء مثلاً.

في زمن ذلك الذي بقي رئيساً للوزراء ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً، وفي اجتماع للحكومة قال أحدهم (في الحديث عن الملك) بأنه الشخص الأول في البلد، فانزعج لأن وصف "الأول" يعني

وجود شخص آخر هو "الثاني" في البلد، واعترض على القائل لأن "صاحب الجلالة" واحد لا أحد سواه في البلد. وكانوا يسعون لجعل الشعب يعتاد على هذا المنطق أن "أمر الملك هو أمر الله، ولا فرق بينهما."

وحرّفوا تفسير كلمة صحيحة تقول إن "السلطان ظل الله" ولكن "ظل" كل شخص تابع له وليس له شيء مستقل من ذاته، لا حركة ولا غيرها، فهي من "ذي الظل" وليس من الظل، فالإنسان المتحرك لا يتحرك ظله من ذاته بل يتحرك على وفق حركة الشخص الذي إذا حرك يده تحرك الظل معه، وإذا جلس تابعه ظله أيضا. وهكذا فليس الظل شيء مستقل من عنده.

إذاً، فكلمة "السلطان ظل الله" قرأت الفاتحة على كافة السلاطين، وأثبتت أنهم ليسوا سلاطين. فالذي لا يكون ظلًا لله، أي الذي يرى لنفسه شيئًا ويتحرك خلاف الأوامر الإلهية، هو مستقل وليس ظلًا، ليس سلطانًا. النبي الأكرم (ص) هو ظل الله لأنه ليس لديه شيء من عنده، بل كل ما عنده هو من الوحي، وهو تابع الوحي، وأمر الله ونهيه، يتحرك بتحريكه ويحارب بأمره، منزّه عن أن تكون له آمال وطموحات نفسانية يتحرك على أساسها. وهكذا كان حال أمير المؤمنين (ع)، حيث يروى أنه عندما بارز عمرو بن عبد ود وضربه وأسقطه على الأرض وجلس على صدره ليقطع رأسه تجرأ عمرو وبصق عليه، فقام عنه وابتعد ثم عاد وقطع رأسه. وعندما سألوه عن سر ذلك أوضح لهم أنه تركه خوفاً من أن يكون في قطع رأسه شائبة من الغضب لنفسه، فهو يريد أن يكون عمله خالصاً لله بالكامل.

إذاً، فكلمة "ظل الله" كلمة صحيحة تعني قراءة الفاتحة على كل السلاطين والمتجبرين والمستكبرين، وهي تبيّن واجب المؤمنين والمسلمين تجاه السلاطين وسلاطين الجور. لكنهم حرفوا معناها وصوروها للناس بأنها تعني أن "لا فرق بين أمر الله وبين أمر الملك". وقاموا بهذه الممارسات المنحرفة والظلم والجور والخيانات بالصورة التي جعلت عامة الناس تعتاد عليها، حتى إذا فقدتها استوحشت. أما ألان فقد تغير حال شعبنا وأصبح الصبي ذي الأثني عشر عاما يقف بوجه الشرطي في قم وغيرها ويهتف "الموت للملك"، وهو الشعار الذي أصبح شعارا عاديا متعارفا بين أوساط شعبنا يفتح عليه الطفل الصغير لسانه فيكون أول ما ينطق به لسانه هذه الكلمة، وكم هي كلمة مباركة (يضحك الحاضرون).

هذا هو حال شعبنا الآن وما أثمرت نهضته، النهضة التي تفجرت من بين صفوفه فلا يستطيع أحد أن يقول: إنها نهضتي، لا يحق له أن يدعي ذلك، ويخطئ من يطلق هذا الدعاء، فما من يد تستطيع

إيجاد مثل هذا التعبير لدى أي شعب. فهذا فعل الله، وهذه يد الله. وما من قوة تستطيع تحقيق ذلك في غضون سنة واحدة وبضعة أشهر، لأن العمل قبلها كان تدريجيا ولم يظهر للخارج. وهذا التحول والتغيير حصل في بلدنا وفي شعبنا خلال سنة وبضعة شهور، حيث غير فيها ما كان طوال مئات السنين، بل على مدى ألفين وخمسمائة سنة، ومثل هذا لا يمكن أن تحققه أيدي زيد أو عمرو. لا يمكن القول أبدا إن علماء الدين هم الذين حققوا هذا الإنجاز، ولا الكسبة، بل هي يد الله، حيث تفجرت هذه النهضة من أعماق الشعب بأمر الله، وهذا هو مكن الأمل المشرق، لأنه أمر إلهي فهو مفعم بالأمل.

لقد تغير حال شعبنا إلى نقيض ما كان عليه سابقا. عندما كان القول بوجوب احترام الملك وشرطته والمسؤولين أمرا طبيعيا وجزءاً من هوية الشعب، يقضي بتحمل الضرب والضرائب المجحفة والشتائم دون النبس بنت شفة، وكأن هذا أمرا مقدر لا فرار منه. فتغير هذا الحال، وظهر هذا التحول ببركة الأمر الإلهي، وغيرت هذه النهضة المتفجرة من أعماق الشعب نفسه أحواله، فصارت طبيعته تقضي بإطلاق هتاف الموت لسلطنة فلان، وهو الهتاف الذي أخذ يطلقه الطفل الصغير الذي تعلم النطق للتو، كما كتبوا لنا عن ذلك قبل أيام بشأن أحد أطفالنا الصغار من أرحامنا الذي أطلق. أول نطقه. هذا الهتاف.

هذه هي الخدمة التي قدمها الشعب لنفسه، وهذا هو اللطف الذي تلتف به الحق تعالى بذاته المقدسة على هذا الشعب. فلا تغزّنكم وساوس بعض الأشخاص، وهم جزء من الجهاز الحاكم، الذين يثيرون تساؤلات من قبيل: ما الذي حققته كل هذه الدماء المسفوكة؟ وما الذي أنجزته هذه النهضة؟ فانظروا إلى ما كان عليه الحال وما آل إليه الآن، فهذا الشعب الذي كان يعيش كل تلك الذلة والقلق والسكوت قبالة الظلم. يقف الآن مثل الجبل الشامخ في مواجهة الظالم وبيارز الحراب بقبضته، فأى حال أفضل من هذا يريدون؟! شعب ضحى بشبابه وهو يتقدم للتضحية بالنفس مواجهها المدافع والدبابات ثم يعلن استعدادة للتضحية بما تبقى لديه، فأى حال أفضل من هذا يريدون؟! وأي تحول وسمو معنوي أسمى من هذا الحال، حيث تغير حال شعب خلال سنة وأشهر إلى نقيض ما كان عليه. وهذا ما لا يستطيعون أن تجدوا له نظيرا في أي مكان.

هذا هو الحال الجديد الذي أصبح عليه وضع الشعب في كل أنحاء البلد. بعدما كانت بعض مناطقهم لم تشهد طوال عمرها يوما واحدا من الإضراب من أجل هذه المطالب. وبعض المدن لم تتدخل طوال حياتها، في مثل هذه الأمور ولا ليوم واحد. فقد كان الوضع بحيث إذا تدخل العالم في هذه

القضايا ووقف في قضية من قضايا حياة الناس في مجابهة الحكومة لقييل بأنه عالم دين سياسي، ومهروه بهذا الختم، وكان عليه حينئذ أن يعتزل في بيته لأنه سياسي.

أجل، لقد كان هذا منطق الشعب في السابق بفعل الدعايات المشؤومة التي روجوها في أوساطه طوال التاريخ وجعلوه يعتاد على هذا النمط من الحياة. فيتحمل الضرب ونهب ثرواته، ومع ذلك يتبع ناهبيه وظالميه. إذاً فهذا التحول الذي أوجده الشعب هو أعظم خدمة قدمها لنفسه ولا نظير لها في تاريخه. فلا ينبغي القول ما الذي تحقق؟. لقد تحقق الكثير من الإنجازات، وحتى لو فرضنا أننا لن نستطيع تحقيق شيء آخر، وحتى لو أخذونا وخنقونا دون أن نقدر على فعل شيء. فإن ما تحقق إلى الآن هو إنجاز قيم اقترنت به هذه التضحيات التي قدمها الشعب الإيراني، وهذا التحول الذي شهده، بحيث صار يقدم مئات وآلاف الضحايا والفدائيين، ويبعث هذه الروح الحية. فلا تتصوروا أن الأعداء يستطيعون أن يفرضوا عليكم الممارسات الظالمة التي كانوا يقومون بها. فقد انقضى عهد فرض الظلم ولن يستطيعوا إرسال شرطتهم لضرب الناس. فقد انقضى ذلك العهد، انقضى.

هوية الخطاب رقم . 53

فرنسا/ باريس/ نوفل لوشاتو: 29 ذي القعدة 1398 هـ، الموافق 1 نوفمبر 1978م.

الموضوع: حتمية سقوط النظام الملكي في ظل تنامي الوعي السياسي لعامة الشعب.

المناسبة: توقف تصدير النفط الإيراني للخارج بسبب الضرر الشامل للعاملين في الحقل النفطي.

الحاضرون: جمع من طلبة الجامعات والإيرانيين المقيمين في باريس .